ملخص محاضرة: تجديد أصول الفقه والقيم الحديثة

أ.د. حمادي ذويب / صفاقس

لا يعتبر تجديد أصول الفقه من المسائل الحادثة والطارئة، فمنذ أقدم العصور برزت محاولات متنوعة لتجديد البناء الشافعي للأصول إن من داخل الفكر السني وإن من خارجه.

وظهر في هذا السياق عدد من الأعلام كإبراهيم النظّام المعتزلي وابن حزم الظاهري وأبوحامد الغزالي ونجم الدين الطوفي وأبو إسحاق الشاطبي.

والناظر في كل المحاولات والمشاريع التجديدية يلاحظ أنها إنما انبجست لتلافي ثغرات واختلالات تجلي أزمة يعاني منها النظام الأصولي منذ بداية نشأته.

ومن تجليات هذه الأزمة طغيان الظن على القطع ، وفي هذا الصدد نلفي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ينطلق من أنّ معظم مسائل أصول الفقه مختلف فيها بين الأصوليّين وأنّ أغلبها لا يرجع إلى خدمة حكمة الشريعة ومقصدها ولكنها تدور حول محور استنباط الأحكام من ألفاظ الشارع بواسطة قواعد لفظية تمكّن العارف بها من انتزاع الفروع منها، ويصل إلى أنّ علماء أصول الفقه "لم نرهم دونوا في أصول الفقه أصولا قواطع يمكن زجر المخالف عند جريه على خلاف مقتضاها كما فعلوا في أصول الدين، بل لم نجد القواطع إلا نادرا مثل ذكر الكليات الضرورية، حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال والعرض. وما عدا ذلك فمعظم أصول الفقه مظنونة"[1].

وفضلا عن ذلك فإنّ هذه الأزمة تعود في بعد من أبعادها إلى انحراف الآليات الأصولية عن القيم الإنسانية والقرآنية في كثير من الأحيان كالحرية والمساواة والعدل. وبناء على هذا سنلمع إلى بعض تجليات هذا الانحراف في القديم وإلى بعض المواقف التجديدية النقدية التي واجهتها سعيا إلى إرساء منظومة أصولية أكثر عدلا وتسامحا مع المخالف والمهمش.

ومن الجلي أن المنظومة الأصولية اضطلعت بدور إيديولوجي تبريري لما هو سائد بقطع النظر عن مدى انسجام مواقفها مع القيم الإنسانية من ذلك تسويغ العبودية واستبداد الحكام وهيمنة الرجال على النساء والخاصة على العامة . ولم تحظ هذه المواقف بمصادقة كل العلماء فقلة منهم لم يستسيغوها ونقدوها سعيا إلى اعتماد أصول جديدة أكثر قربا من الإنسان وواقعه وقضاياه ، فالإنسان هو الغاية الأساسية للتشريع ، وهذا ما دفع إلى بروز المصالح والمقاصد منذ القديم لكن انسداد مجال المقاصد جعل الانفتاح على القيم الحديثة ضرورة ملحة .

وفي هذا السياق أدمج مقصد/ مطلب الحرية ضمن مقاصد الشريعة وضمن مطالب المجددين المحدثين لفسح المجال للمرأة مثلا في مجالات الشهادة وتولي السلطة السياسية ولغير السنيين في المشاركة في الإجماع وفي غيره من المسائل التي وقع إقصاؤهم منها، ولغير المسلمين الذين كانوا تحت سيف حد الردة .

ودعا بعض المجددين الآخرين إلى اعتبار أنّ الإسلام لن يتجدد إلا بأصول فقه جديدة غير التي وضعها الأئمّة، وبمقاصد شريعة غير التي وضعها الشاطبي، والسبيل إلى تحقيق ذلك العودة إلى القرآن مباشرة دون التقيد بتفسيرات المفسرين .

1- محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص 5.